قصة قصيرة

الحاجة ماتني

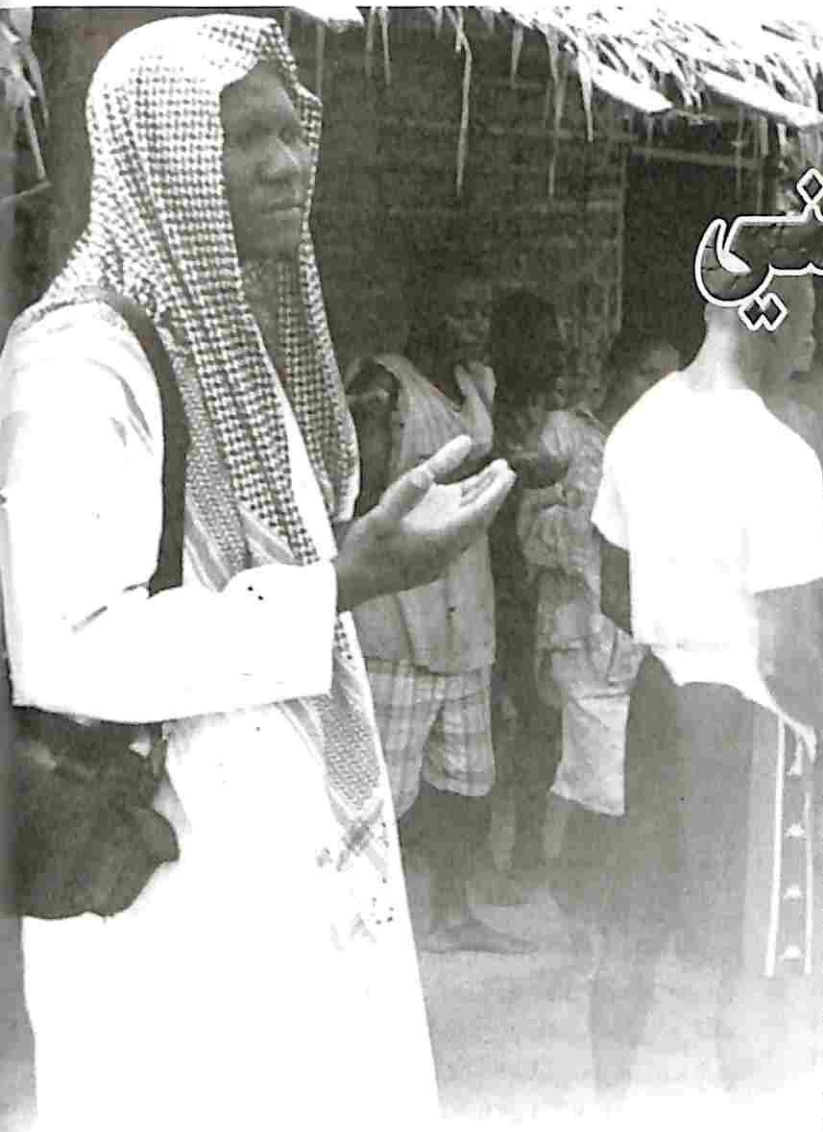

كانت شمس الضحى في الأفق قد بدأت تتوهج.. وخطرات نسيم الصبا أصبحت تتلاشى شيئاً فشيئاً، والأطيار تغرد على أغصان شجرة المانغو الوارفة الظلال وسط الدار، والرياح العليلة تهب حيناً وحيناً؛ فتتمايل أغصان الأشجار على سطوح المنازل مثل أمٍّ تحنو على ابنها وتضمه إلى صدرها.

كانت كل هذه الأصوات المتناغمة وحركات الأغصان كأنها تحاكي تكبيرات الحاجّةِ "ماتني" وحركاتها وهي قائمة ساجدة لله تؤدي سنة الضحى في الزاوية المخصصة من بهو غرفتها.. والديكة في فناء الدار كانت بين الفينة والأخرى تضرب بجناحيها، وتمد عنقها بالصياح كأنها تشارك في هذا الموكب التسبيحي لله الواحد القهار، ثم تتابع البحث متفائلة عن رزقها في الأرض.

في ذلك الحين، كان إمام المدينة يخطو خطوات متثاقلة نحو بيت الحاجة "ماتني" ومسبحته الطويلة تتدلى من يديه فوق خصره، وهو مطرق إلى الأرض كأنه يعد كل حصاة في مواطئ قدميه.. يرافقه غلام يافع يحمل فوق رأسه حقيبة لا تبدو ثقيلة، يمشي بجوار الإمام ثلاثة آخرون من بينهم السيد بكاري (أبو بكر) الابن البكر للحاجة ماتني.

دخل الرجال الدار وكانت الآنسة "ماتني الصغيرة" تغسل الأواني بالقرب من المطبخ في الجهة الأخرى من فناء الدار، والآنسة ماتني الصغيرة هي حفيدة الحاجة "ماتني" وسميّتها، وقد تعهدت الحاجة بتربيتها منذ أن فقدت أمها في الثانية من عمرها، وكانت أمها البنت الوحيدة للحاجة ماتني. عندما رأت الآنسة القادمين اعتدلت قائمة، وزبد الصابون يتساقط من قطعة إسفنجة التنظيف في يدها، وقبل أن ينبس أحدهم بسلام، بادرت هي خالها بكاري ساخرة:

– هيه.. خالي بكاري! أين اختفيت هذه الأيام؟ إن من له أم فانية مثل أمك لا يغيب لمدة نصف يوم.. ألم تعلم "أن رحالة قلما يشهد جنازة أمه؟!"[1]

نظر إليها خالها نظرة شاردة، فيها أسى وإشفاق، وتابع الخطا نحو غرفة أمه يتبعه الآخرون. أدركت البنت أن أمراً محزناً قد حدث؛ إذ كان خالها في مثل هذا الموقف يكيل لها السخريات واللمزات بأشد منها، وربما تدخلت العجوز الحاجة ماتني في المزاح قائلة:

– إيه بكاري! لا تعبأ بهذه الغبية؛ ألم تجد لها بعد أغبى رجل في المدينة فنزوجه إياها دون مهر؛ حتى

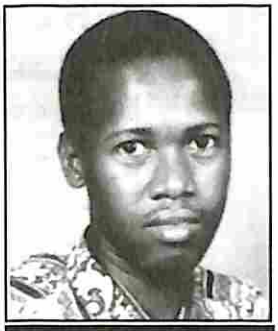

بقلم: آدم بمبا
ساحل العاج

نستريح؟.. وكانت الآنسة تقاطع جدتها قائلة: "ولكن زوجي مهما بلغ من الغباوة، فإنه لن يحمل معه ساعة منضدة ويحوم بها في الطرقات".. وكان الجميع ينفجر في الضحك؛ إذ إن هذه الكلمة الأخيرة من الآنسة إيماءة إلى المرحوم الحاج "صونكالو" زوج الحاجة، وقصته أن ابنه بكاري لما كان طالباً في باريس، أرسل إلى والده ساعة منضدة منبهة، يتعرف بها على أوقات الصلوات حتى يبادر إلى الأذان في المسجد؛ فكان الشيخ لفرط إعجابه بتلك الساعة يحملها معه في كل مكان، ويعد رناتها المتكررة بعد الساعة الراهنة. وبما أن سمع الشيخ كان ضعيفاً؛ فإن دقات الساعة كانت تختلط عليه أحياناً فيؤذن للصلاة في غير وقتها.

على بُعد خطوات من باب غرفة الحاجة ماتني رفع الإمام - كعادته - صوته بالسلام:

- "أسلامو أليكوم"

وقبل أن يغادرَ الحرفُ الأخيرُ فمَ الإمام كان الابن بكاري قد نبهه إلى أن الحاجة في الصلاة، وأمرهم بالدخول، وبعد أن أخذ الإمام مكانه، أومأ إلى الغلام بوضع الحقيبة في زاوية من الغرفة كأنه يريد إخفاءها عن الأنظار.. طال الانتظار قرابة ربع ساعة، كان الصمت خلاله هو الذي يحيي المكان، ولم يكن يجرح هذا الصمت إلا صوت تساقط حبات مسبحة الإمام بعضها على بعض بشكل متقطع، وكان الجالسون يحاولون الانشغال بشيء يعزز غيابه عن المكان، غير أن الأنظار كانت تتابع تكبيرات الحاجة ماتني حيناً، وتتصادم حيناً آخر على صورة مكبرة على الجدار لحفيدها "مادو" (محمد)، شقيق الآنسة ماتني الصغيرة، والذي سافر إلى البلاد العربية منذ سنين للتفقه في الدين.. كانت الأنظار تتصادم على هذه الصورة المبتسمة ذات الشباب الربيعي، لكن سرعان ما يخطف الناظرون أبصارهم عن الصورة مطرقين إلى الأرض.

بعد أن أتمت الحاجة صلاتها، قامت إلى الجالسين، وحيت الإمام بالسلام، واستفسرت عن أحواله، وأحوال زوجاته الثلاث، وأطفاله، ثم سلمت على الباقين، غير أن الجميع كان يجيب إجابة قصيرة جداً عن أسئلة الحاجة ماتني..

توجهت الحاجة إلى الغلام.. سألته عن أبويه، وعن جدته، فلم يزد على الإيماءة بالرأس.. مازحته قائلة:

إيه زوجي الصغير! هل منعتك جدتك ضرتي عن مكالمتي؟ إن هذه العجوز قد أفسدتك عليَّ! وابتسمت..

نظرت إلى الحاضرين حتى يشاركوها ابتسامة النكتة، لكن أحداً لم يبادلها ابتسامتها.. شعرت الحاجة أن هذا الوفد جاء لأمر مهم، لكن وجود ابنها مع الوفد كان يطمئنها قليلا؛ إذ كانت قلقة عليه بعد أن غاب أسبوعاً كاملاً دون أن يزورها مرة كل يومين كالعادة.

وقبل أن تستقر العجوز في مجلسها، أسرعت إلى الثلاجة معتذرة للزوار عن عدم تنبه حفيدتها لتقديم الماء لهم غير أن الإمام نبهها إلى أن الوقت وقت صباح، وأن اليوم يوم خميس، فمعظم الحاضرين صائمون.. وهكذا دار كوب الماء على الحاضرين، ولم يشرب منه إلا الغلام!

بعد أن أخذت العجوز مجلسها خاطبت ابنها حسب عادة الاستقبال، وقالت:

بكاري.. قل للإمام أن يزودنا بما عنده من الأخبار[٢].

بكاري: أيها المعلم.....

لم يطق إكمال كلامه، ولم يكن الإمام بحاجة إلى مزيد.. اعتدل الإمام في مجلسه، وجمع مسبحته ووضعها في جيب جبته، ثم عدل العقال على رأسه،[٣] وبدأ ينشغل مرة أخرى بالرداء على كتفيه.. غير أن هذا كله لم يؤثر في نظرات الحاجّة بل كانت بكامل صبرها وأناتها..

بدأ الإمام.. وصلى على النبي وحمد الله. وتلا آية.. ثم مسح على وجهه وأمّن.. حاكاه الآخرون.. تظاهر مرة أخرى بالسعال، فكأنه ليس هو ذاك الخطيب المفلق،.. لكنه أخيراً لم يجد بداً من المتابعة قال:

ابني بكاري! أبلغ أمك الحاجة أن لا شر..[٤] إن ما قدره الله فلن يستطيع عبد صرفه.. وما من مصيبة تصيب العبد إلا وقد أصاب عبداً مثلُها أو أشدُّ منها، وهل هناك مصيبة أشدُّ من رجوع "سيدنا" إلى المعاد![٥].